كلمة عن حضارة

جزيرة كريت القديمة

هل هي اطلانتيد الاساطير ؟

لشارل عيساوي

ورد ذكر كريت غير مرة في الالياذة والاساطير اليونانية فقد تحدّث هوميروس عن « كريت ومدنها المائة » وكان اليونانيون يزعمون ان الاله زفس نشأ في تلك الجزيرة وأقام ابنهُ مينوس حاكماً عليها فكان يقابل الاله زفس كل تسعة اعوام ليأخذ عنهُ الحكمة ويعود الى رعيتهِ فيسنّ لهم الشرائع والقوانين. وقد ورد في الاساطير ايضاً ان اثينا كانت ترسل الى كريت سبع فتيات وسبعة فتيان على سبيل الجزية كل تسع سنوات فيبتلعهم مينوتور (الثور الخرافي ذو الجسم البشري) وظلت تدفع هذه الجزية حتى تغلب ثيسيوس البطل الاثيني على مينوتور وقتله

ويقول هيرودوتس ان مينوس (والراجح ان هذا الاسم كاسم قيصر وفرعون لا يشير الى ملك معين بل كان لقباً يلقب بهِ كل من جلس على العرش) جرّد على كاميكوس في صقلية أسطولاً كبيراً وجيشاً جراراً فانتهز بعض القبائل اليونانية فرصة غيابه عن كريت ففتحوها واستولوا عليها وانتهت بذلك المدنية الكريتية العظيمة

ويُستدلُّ مما ذكرناه انهُ كان لكريت تاريخ قديم مجيد غير ان الناس لم يكونوا يعرفون شيئاً عنهُ حتى العهد الحديث لما أخذ هنري شليمان الالماني الشهير يبحث عن آثار المدنية اليونانية في آسيا الصغرى والمورة واخذ غيره ينقب في جزيرة كريت ولعلَّ أشهرهم السر آرثر جون افانس. وقد رفع هؤلاء الاثريون النقاب عن ادوار الحضارة اليونانية القديمة وتحوُّلها فاتضح منها ان المدنية اليونانية التي كان يعتقد كثير من الناس انها قد نشأت فجأة، متصلة بالحضارة الكريتية كما ان النهضة الاوربية Renaissance متصلة بالحضارتين اليونانية والرومانية. وهذا مما يثبت ان الطبيعة لا تعمل قفزاً بل يكون عملها تدريجياً كما يقول الرومانيون

﴿سكان الجزيرة وتاريخهم﴾ كان سكان كريت قصار القامة طوال الرؤوس نحاف الخصور سود الشعر والعيون سراع الحركة وبالجملة كانوا ينتمون الى الفرع الذي تتألف منهُ الشعوب القاطنة حول بحر الروم اي انهم كانوا يشبهون كل الشبه اهالي سردينيا وكورسيكا وبعض اقاليم ايطاليا. واللقب الذي لقبهم به اليونان وهو «الرجال ذوو الجلود الحمر» يدل بكل وضوح على انهم كانوا سمر الالوان

وأما تاريخهم فليس عندنا ما يساعد على شرحه شرحاً وافياً لاننا لما نتوصل الى قراءة كتابتهم التي كانت ارق من الكتابة المصرية . ويرجع ذلك العجز الى اننا لم نعثر حتى الآن على اية وثيقة في اللغتين الكريتية والمصرية او الكريتية والفينيقية وعسى ان نظفر فيما بعد بمثل هذا المستند فنتمكن من الاطلاع على اسرارهم . الاّ انهُ في وسعنا ان نقول ان الجزيرة لم تخضع لسلطة كنوسوس اكبر المدن الكريتية الاّ بعد ردح طويل من الزمن يعاصر طرد الهيكسوس من مصر . اما من الخارج فكانت الجزيرة في غاية المناعة . وابلغ دليل على هذا عدم تحصين المدن فيها . ففي كنوسوس مثلاً لم يجد المنقبون سوى برج صغير لا يزيد قيمته الدفاعية عما يكفي لسدّ غارات القرصان . والواقع ان كريت كبريطانيا العظمى كانت تعتمد على اسطولها العظيم وهي اول من اسس دولة بحرية في التاريخ

ولا نعرف حتى الآن كيف انتهت الدولة الكريتية غير ان آثارها تدل على حدوث ذلك عقب كارثة فجائية . والراجح ان « ميكينا » اكبر المستعمرات الكريتية تبرّمت بحكم مينوس المستبد فخرجت عليه وهزمت اسطوله او على الاقل تملّصت منه فاغارت على كنوسوس وحرقتها الاّ ان مصباح الحضارة الكريتية لم ينطفىء حتى فتح الجزيرة الاغريقيون «الدوريون» في سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد

***

﴿ الزي والنساء ﴾ كانت ثياب الرجال في كريت تشبه ثياب معاصريهم اي انها كانت عبارة عن منطقة للحقوين وحذاء من الجلد ولفة على الساق كلفّة الجنود . وكانوا يرتدون في فصل الشتاء لفاعاً واسعاً ويحمون رؤوسهم بعمامة او قبعة تشبه البيرية (beret) . اما النساء فكنّ يلبسن ثياباً تشبه كل الشبه ثياب الاوربيات كما يظهر لك في الرسوم التي تصحب هذا المقال

وكان اسلوبهم في البناء يختلف كل الاختلاف عن الاساليب المصرية والاغريقية . فبينما كان المهندسون المصريون والاغريقيون يبنون البيوت طبقاً لطراز معين كان الكريتيون يستغنون عن الانسجام ويتوخون الراحة وكثرة النور والهواء الطلق فلم يكتفوا بطبقة واحدة بل كانوا يجعلون البيت من طبقتين او ثلاث طبقات فيبلغ علوه عشرة أمتار او خمسة عشر متراً . وكانت المنافذ مغطاة بالرق الشفاف

واذا ما تأملنا قصر كنوسوس الكبير الفيناه مؤلفاً من عدة غرف مبنية حول فناء واسع يفصل بينها ممرٌّ مسقوف وعلى ذلك كان البناء شبيهاً بخلية النحل . وكانوا يضيئونه بواسطة مساقط نور (مناور) . وليس هناك ما يدل على ان الكريتيين كانوا يفصلون غرف النساء عن غرف الرجال مما يدل على حرية المرأة واختلاط الجنسين عندهم . ولكنّ هناك شيئاً اجدر بالشرح من اسلوبهم في البناء وهو انتظام مجاريهم الذي دهش له المنقبون لانهُ فريد في نوعه لا في تاريخ الشرق القديم فقط بل

في اوربا حتى القرن التاسع عشر . فاذا خفضنا ارض الطبقات العليا في قصر كنوسوس وجدناها منقوبة في غير مكان واحد وليست هذه الثقوب الا آبار صغيرة محفورة في الجدران لجمع الماء وصبه في حوض واسعة مبنية من الحجر ومبطنة بالاسمنت تؤدي الى خزانين كبيري الحجم يسيل الماء منهما الى نهر صغير كان يجري بالقرب من القصر . وكان هذا النظام عينه ينطبق على المراحيض « فكان مينوس يتمتع بميزات صحية لم يعرفها لويس الرابع عشر في فرسايل »

***

وبلغ المهندسون الكريتيون نصيباً وافراً في علم حركة السوائل (الهيدروليكا) بدليل ان الترعة الصغيرة المنحدرة بجانب سلم القصر الكبير ليست مستقيمة بل ملتوية مما يمنع الماء من الجريان بسرعة زائدة والطغيان على السلم . وكانوا ينقلون الماء الى القصر في انابيب من الطين المحروق طرفها الواحد اعرض من الآخر بحيث يمكن ادخال البعض في البعض الآخر . ولكي لا تضغط الانبوبة الضيقة على الواسعة كانوا يلفونها بحلقة خارجية وكانوا يلتقطون طرف الانبوبة العريضة كما (يتضح من الرسم) ثم يلحمونها بالاسمنت

وكانت طرقهم في غاية الاتقان ولم يشهد العالم ما يشابهها حتى ادخل المهندس الشهير مك آدم Macadam طريقته المعروفة في انكلترا ، ويكفي دليلاً على إتقانهم مد الطرقات ان توازن بين الطريق الكريتي الذي يصل قصر كنوسوس الكبير بالقصر الصغير والطريق الروماني على مقربة منهُ . فان الطريق الكريتي يظهر بوضوح امتن واكثر اتقاناً مع ما كان للرومان من شهرة في تعبيد الطرق . ولا تقل شوارع المدن اتقاناً من هذا الطريق اذ كانت محفوفة برصيفين وترعة صغيرة لجمع الماء وتصريفه

﴿ مقام النساء ﴾ كان للنساء مقام سامٍ في كريت وكنَّ يتمتعن بحرية لم تعرفها الاغريقيات والرومانيات . وحسبك دليلاً ان الكريتيين كانوا يعبدون الهةً وابنها الصغير ويرمزون بذلك الى خصب الطبيعة . وكانت حياة كل هذه الالهة مكتظة بالكاهنات

اما عن حياتهنَّ الاجتماعية فكنَّ يشتغلن في الحقول ويمارسن الصناعات كالرجال ويخرجن معهم الى الصيد ويتنزهن في العربات دون رفيق او رقيب . واغرب من ذلك انهنَّ لم يكتفين بمشاهدة الالعاب الرياضية بل كنَّ يشتركن فيها فيصارعن ويتلاكمن ويكافحن الثيران مثل الرجال!

﴿ كريت ومصر ﴾ لم تعش مصر منعزلة عن جيرانها — على الضد مما يعتقده الجمهور — بل كانت متصلة كل الاتصال ببلدان الشرق الادنى ولاسيما جزيرة كريت

ولعلَّ بعضهم يظن ان المسافة بين البلادين وهي خمسمائة كيلو متر كانت فوق طاقة سفن ذلك العهد . ولكن لا يفوتنا ان فراعنة الاسرة الثالثة ارسلوا اسطولاً الى سوريا وبعثوا حملة تجارية الى الصومال . أوليس معقولاً اذاً ان شعباً بحريًّا كالشعب الكريتي لا يحجم عن قطع المسافة بين

تمثالان من القاشاني للربة ذات الثعبان وجدا
في كنوسوس
(عن دائرة المعارف البريطانية)

لوحة من القاشاني وجدت في كنوسوس
(عن دائرة المعارف البريطانية)

بعض آثار الفن الكريتي

ثوب كريتي قديم للنساء
يشبه ملابس الاوربيات

نموذجان من صناعة الخزف الكريتية

وعاء عثر عليه في
كنوسوس Cnossus
(عن دائرة المعارف البريطانية)

وعاء وجد في زكرو Zakro
في كريت
(عن دائرة المعارف البريطانية)

جزيرته ومصر وعن ممارسة القرصنة تارة والتجارة البحرية الشريفة اخرى . والظاهر ان التجارة بين البلادين ترجع الى عهد قديم جداً فقد وجدت عدة اوانٍ من النوع الكريتي في قبور بعض رجال الاسرة الاولى . ومن جهة اخرى عثر المنقبون في كريت على عدد يذكر من الطاسات المصرية المصنوعة من الحجر القاسي المسمى بالديوريت . والمعروف عن تلك الطاسات انها لم تصنع الاّ في عهد الاسرتين الاوليين وليس من المحتمل انها نقلت الى كريت فيما بعد لان الشعوب القديمة لم تعلق شأناً كبيراً بتراث اسلافها

وظلت التجارة رائجة بين البلادين حتى انقضاء المملكة المصرية القديمة وابتداء الفوضى التي سادت مصر زمناً طويلاً . ولما زالت الفوضى وجلس ملوك الاسرة الثانية عشرة على عرش مصر استؤنفت العلاقات واخذ كلاهما يتبادل السلع . فقد وجد اناء كريتي في ضريح ابيدوس بالقرب من لوحة عليها اسما «امنمحت» و «سنوسرت» وقد سمع الجميع عن الهيكل العظيم الذي بناه امنمحت والمعروف بالتيه المصري labyrinth ومن دواعي الاسف انهُ لم يبق لهُ اثر فلا نستطيع ان نوازن بينهُ وبين الدور الكريتية بيد ان وصف هيرودوتس وغيره من المؤرخين والسيّاح يحملنا على الظن بأن منشئهُ اقتبس رسمه مما بلغه من وصف التيه الكريتي

ولما اراد امنمحت وسنوسرت ان يشيدا هرميهما أنشآ القرية المعروفة بقاعون واستدلّ بعض المنقبين من كثرة الخزف الكريتي في بعض احياء هذه القرية على ان عدداً ليس بالقليل من الصنّاع الكريتيين الماهرين كانوا يشتغلون في بناء الهرمين ووجد في كريت تمثال مصري من النوع الذي يوضع في الرموس يدل على وجود مصريين في الجزيرة

ولما فتح الهيكسوس مصر نقص مقدار التجارة بين البلدين الاّ ان المنقبين وجدوا في كريت غطاء صندوق من المرمر منقوشاً عليهِ اسم «خيان» اشهر ملوك الهيكسوس ويزعم بعضهم ان الهيكسوس فتحوا كريت كما فتحوا مصر ولكن هذا الرأي غير معقول ولا ريب لان مصر لم يكن لها أسطول كافٍ لغزو كريت ولا سيما في ذلك الزمن لما كانت دولة ميتوس في اوجها

واخذ المصريون في عهد الامبراطورية يكثرون من الاشارة الى اسم «الكيفتي» . وكثيراً ما تساءل الباحثون ما عسى ان يكون الكيفتي ، ويقول العلامة بيكي ان معنى الكلمة «سكان البلاد التي وراء . . .» وان ذلك يرمز الى كريت التي تقع في آخر «الخضراء الكبيرة» كما كان المصريون يسمون بحر الروم . ومما يرجح هذا الرأي ان الكيفتي كما ترائم مرسومين على جدران قبر «سنموت» وزير الملكة حتشبسوت يشبهون الكريتيين كل الشبه ، وخدم الكيفتي طاحوتمس الثالث خدمات جليلة أهمها نقل الخشب السوري الى مصر . ويقول بعضهم ان اسلوب ميناء القادوس الشهيرة يدل على انهُ كان للكريتيين نصيب كبير في انشائه ولعلهم اوحوا بهذه الفكرة الى المصريين . بل ان جميع المهندسين والملاحظين كانوا ولا شك من كريت ، وغني عن البيان ان تلك الميناء كانت تعود بالفائدة

على التجار الكريتيين دون غيرهم . لكنهم لم يتمتعوا بها الاّ قليلاً لان كنوسوس حرقت ودمرت في ذلك الحين فانقطعت جميع العلاقات بين مصر وكريت ولم يرد ذكر هؤلاء الامرة واحدة في التاريخ المصري القديم اذ يقول رعمسيس الثالث انهُ هزم حملة كبيرة وجهت الى مصر وان « اثركارو » — وهم ولا ريب سكان زكرو احدى مدن كريت — كانوا من أنشط العناصر في جيش العدو

﴿ أثر المكتشفات الكريتية في آرائنا ﴾ لقد احدثت التنقيبات التي أظهرت مدنية كريت انقلاباً كبيراً في ما كان العلماء ينسبونهُ الى الفينيقيين من نصيب في تقدم الحضارة اذ كان الجميع يزعمون انهم هم الذين نقلوا المدنية من مصر الى اليونان ويقول غيرهم ان الفينيقيين استنبطوا الكتابة الحديثة ولم يكن احد يشك انهم اول من صنع الاقمشة مستندين في ذلك الى ان صبغة مدينة صور كانت مستعملة في جميع بلدان البحر المتوسط . واما الآن فاتضح ان الكريتيين كانوا يزاحمونهم في جميع هذه الميادين . اما فيما يختص بالكتابة فقد ظهر ان دور الفينيقيين لم يزد عن تكييف كتابة الكريتيين وجعلها اسهل واقرب منالاً . وهذا مع أنهُ يستحق التقدير إلاّ انهُ ليس بذي شأن خطير اذا ما قابلناهُ بما كان ينسب اليهم

وقد اكتشف في كريت ثلثة مخازن من الصدف الذي كان الفينيقيون يستخرجون منهُ صبغاتهم مما يدل على ان صناعة الصباغة كانت رائجة في تلك الجزيرة ويستنتج مما سبق ان نصيب الكريتيين في عدين اليونان كان أكبر من نصيب الفينيقيين فيهِ . وهكذا قلبت المكتشفات الحديثة آراءنا رأساً على عقب

﴿ هل كريت هي الاطلانتيد ؟ ﴾ وقبل ان نختم بحثنا هذا لا نرى بدًّا من الاشارة الى نظرية طريفة لا يستطيع الباحث ان يهملها من دون ان ينظر فيها وفي اسانيدها . لقد سمع الجميع عن القارة المسماة بالاطلانتيد التي يقال انها غارت في المحيط الاتلانتيكي . ويقول افلاطون ان صولون تحدث عنها مع كاهن مصري فوصفها له الكاهن وصفاً دقيقاً ينطبق كثيرٌ منهُ على كريت . فمن قرأ وصف الكاهن لغرف الحمام ومكافحة النيران الخ يتذكر الحمامات الكريتية والالعاب الرياضية فيها واليك وصف الكاهن لموقع القارة المفقودة : —

« انها كانت تقع بيننا وبين عدة جزائر اخرى واذا ما اجتزت تلك الجزائر وصلت الى القارة التي تحيط بالبحر » فهل يمكن ان يكون وصف كريت ادق من هذا ؟ ولكن يعترض البعض ان الكاهن قال ان الاطلانتيد تقع فيما يلي اعمدة هرقل (اي مضيق جبل طارق) فكيف ينطبق هذا الوصف على كريت

والردُّ على ذلك ان كنوسوس زالت من الوجود قبل ان ابتدأ الفينيقيون يرودون البحار ، وقبل ان طاف بحارة «فرعون نكو» حول افريقيا فكانت كريت اقصى ما يعرفونهُ غرباً اذ ذاك . اما في زمن الكاهن اي بعد هذه الرحلات فقد اصبحت أعمدة هرقل اقصى البلاد التي يعرفونها ولما كان اسلافهم يعتقدون ان الاطلانتيد اقصى بلدان الغرب زعموا ان تلك القارة تقع بعد أعمدة هرقل